رشـيد

رأيت سيدي في بلدي سوى شمعة أخاف أن يرهقها الظلام الحالك فتذوب.

فهل من منقذ ؟ أين العقول النيرة ؟ أم هجرت كلّ الأدمغة وعجزت الأفكارعن الإبتكار؟ أم حبست وساد الإحتكار؟

يقال الصمت حكمة، فربّما كان رشيد شابا حكيما...فحكي عنه أنّه يحب الصمت ويركن إليه.

رشيد شاب أسمر البشرة، أسود الشعر والعينين، متوسط القامة، كان يعيش رفقة أسرته المكونة من أب وأم وثلاث أبناء، كان هو أصغرهم.

وبمرور الأيام نال الإخوة الثلاثة نصيبهم من التعليم والعناية، تزوج خالد وهو الأخ الأكبر، حيث أجر مسكنا مع زوجته ليؤسس أسرته الجديدة، لكنّه لم يؤمن بفكرة المسؤولية واستقلاله عن العائلة وضرورة الاعتماد على النفس ليعيل الأسرة المرتقبة فلطالما تجرأ على طلب المال من والده الذي يعتمد على مبلغ التقاعد.

أما دحمان الأخ الثاني، فهو مشغول بمشروع زواجه ويطالب بكافة حقوقه، هكذا هي حال خالد ودحمان لم يهتما سوى بأمريهما

ونسيا مسؤوليتهما اتجاه الأسرة، مستغلين طيبة والديهما خصوصا الأم التي لا تستطيع أن ترفض لهما طلبا، فأبناءها مفخرة لها أمام جيرانها، وهم بالنسبة إليها قرة عينيها ولن ترى ضوء العالم إلاّ بضيائهم.

بينما رشيد بعد تخرجه من الجامعة بدأ بكلّ جدٍّ يبحث عن عمل وكله تفاؤل وأمل في بناء مستقبله.

كان يومه يبدأ منذ طلوع الفجر ليرتشف كأس القهوة، ثمّ يرتدي معطفه ليقي نفسه من برودة الجوّ، وبيده حافظة ملفات قد رتب بداخلها شهاداته المختلفة ووثائقه.

فتراه متنقلا ما بين المكتبات بدءا بنسخ الوثائق، ثم يعرج على البلدية قاصدا مصلحة المصادقة على شرعية النسخ في زحمة من النّاس، وكأنّه يجمعهم سبيل واحد في آن واحد وماذا بعد ؟

يظل رشيد واقفا أمام طوابير الانتظار لتبدأ مسيرته بعد ذلك اتجاه مختلف الإدارات قاصدا طلب العمل.

قد يلقى استقبال من إحدى المكاتب، وقد يتوقف عند الحارس الذي خوّل لنفسه سلطة المنع والقبول، فيسمح لمن يشاء بالدخول ويرّد من يشاء.

هكذا كان صباح رشيد ليدخل إلى البيت وقت الغذاء، وربّما قبله بقليل وقد نّال حظّه من التعب وبرفقته جريدة ليطالعها آملا بوجود عروض عمل.

بعد وجبة الغداء وتصفح الجريدة يأخذ قسطا من الرّاحة ثم يستعد لرحلة جديدة بعد الظهيرة دون أن ينسى وثائقه قاصدا إدارات أخرى، ليعود إلى البيت مع اقتراب مغيب الشمس.

وقد يكون في يومه برنامج آخر فيذهب إلى مقهى الانترنت ليمضي صباحه أو مساءه هناك بحثا عن الجديد أو كسبا لمعلومة، أو حتى بحثا عن عروض عمل، ولما لا فهم يعرضون كلّ شيء.

إنّ الوثائق وتصويرها والانتقال ما بين المكاتب يتطلب بعض المصاريف، لكن رشيد كان يتدبر أمره لوحده، حيث كان يساعد التجار في وضع البضاعة بالشاحنات أو ينوب عن أحدهم بين الحين والآخر، ممّا وفر عليه سؤل والديه ولو مبلغا بسيطا.

وهو بين هذا وذاك ينتظر الردود من إحدى المكاتب لعلّ وعسى يكون خبر لقبوله بوظيفة ما يعيل بها أسرته، يكدّ رشيد ويتعب بصمت وعزيمة غير مبالي بجشع أخويه.

طال انتظار رشيد للردود وطال معه السعي وراء الوظيفة، وجد الحياة قاسية فأخويه لم يرحماه ولم يعتقاه، كما أنّه غرق في بيروقراطية الإدارة من جهة أخرى، فآثر الصمت.

عرف أن لقمة العيش وسط هذا الكون قاسية، وكم من أنّاس يتعذبون في الأرض من أجل قطعة خبز.

لقد تعب رشيد...أجل تعب...فعايش عالم يعرف الكذب باحترافية، عالم قد داسه القوي بكلّ صمت...رشيد شاب عاقل لا يحبّ السياسة وإن كان يطالع الأخبار ليقول للعالم نحن هنا وإن كنّا بصمت...

عايش عالم يظلم بجهل...عالم يشنق فيه الحق ببستان العدالة، عالم يصبح فيه الضوء ممنوع على الكبار المسالمين وحتّى الصغار الأبرياء.

عرف رشيد قوانين اللّعبة، فآثر هدوء الإعصار، يرقب وصول السفينة إلى برّ الأمان.

صمت مرغما لأن لعبة الساسة خطيرة، وإلاّ يشهر بالجنون... فهو مشحون بالروح الوطنية، وكان يحلم بفرنسية، ويعشق فلسطينية، ويهيم بكل عربية.

قد قرّر رشيد أن يثور، أن يقولها ولو لمرّة ...لا ولا، لن أرضى بالطغيان.

ما لهذا العالم أصابه الجنون ؟ متى يكون هدوء الإعصار؟

صنع قبلة دافئة على جبين أمّه ملؤها العطف والحنان وقال لها: «أحبّك أمّي وأقدّرك أمّي...لكن لن أرضى بالصمت...فالصمت مذلّة وهوان...»

أربكتني مشاغل رشيد !.. ولكنّني تعلمت من قصة رشيد أن أتكلم...أن يسيل حبري

وأن أرحل بحثا عن مدن السلام، فلن أبقى بهذا المكان.